خطبة صلاة الجمعة 31/8/2012 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

www.dr-shaal.com

(مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:90].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111].

أيها الإخوة:

أخبار العلماء العاملين والحكماء الصالحين والمجاهدين المتقين تغرس الفضائل في النفوس، وتدفعها إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وترفعها فوق شهوات الماء والطين لتصل بها عليين.

ومن هنا قال بعض العلماء: الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبّت بها قلوب أوليائه.

نحن في الخطبة السابعة من سلسلة (أعلام من الشام)، التي أحدّثكم في كل خطبة منها عن واحد من أعلام هذا البلد التقيّ المرابط المبارك الكريم الصابر، عن علَم وُلِدَ هنا، أو مرَّ من هنا فعاش حقبة من الزمن، أو توفاه الله في هذه البلدة.

والأعلام المختارون من بعد عصر الصحابة وحتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة.

كنت قد تحدثتُ إليكم عن السلطان الشهيد نور الدين زنكي، وعن السيدة ستِّ الشام، وعن مؤرخِ دمشقَ ومحدثِها الإمامِ الحافظِ ابنِ عساكر، وعن سلطانِ العلماء العزِّ بن عبد السلام، وعن الإمام الأوزاعي، وعن الإمام ابن كثير، وحديث اليوم عن مؤرخِ الإسلام الحافظِ الذهبي.

قالوا عنه: (بحرٌ لانظيرَ له، وكنزٌ، هو الملجأ إذا نزلتِ المعضلةُ، إمامُ الوجود حفظاً، وذَهَبُ العصر معنىً ولفظاً، وشيخُ الجرح والتعديل، ورجلُ الرجال في كل سبيل، كأنما جُمِعَت له الأمةُ في صعيدٍ واحدٍ فنَظرَها، ثم أخذ يُخبِر عنها إخبارَ من حضرها).

الحافظ الذهبي هو شمس الدين أبو عبد الله، محمدُ بن أحمد بن عثمان الدمشقي، ولد سنة 637هـ في قرية كفر بطنا من قرى غوطة دمشق الشرقية.

نشأ الحافظُ الذهبي في أسرة ثريةٍ محبةٍ للعلم، معروفةٍ بالبر والصلاحِ، فقد عمل والدُهُ بالذهب المدقوق وبرعَ، وطلبَ العلمَ، وكان معروفاً بقيام الليل، وقد حصَّل من صنعته مالاً وفيراً، أنفق كثيراً منه في وجوه الخير، ومن عملِ والده بالذهب جاء لقبُ إمامنا الذهبي.

تأدبَ الفتى بآدابِ من حوله، واقتدى بهم من أهلٍ وأرحام، ثم دفعتْهُ أسرتُهُ لطلب العلمِ والتربيةِ عند العلماء والصلحاء، فتتَلمذَ على كثيرٍ من علماء دمشقَ وماحولها في قريته كفر بطنا وفي المزة وفي قاسيون والربوة وجوبر وجسرين والتل ومنين والزبداني وغيرها.

ورغِبَ بعدها في الرحلة إلى مدنٍ مقاربة وبلادٍ مجاورةٍ، لكنَّ والدَهُ ضنّ به وخافَ عليه، فمنعَهُ السفرَ، إذ كان وحيدَهُ، فالتزم الابنُ طاعةَ أبيه وبرَّهُ، مع تحسُّرِهِ الشديدِ على غيابه عن مجالس بعض العلماء الذين كانت تَرِدُهُ أخبارُهم.

ولما اشتدَّ عودُهُ وبلغَ العشرين، أذِنَ له والدُهُ بالسفر على أن لا يقيمَ مسافراً أكثر من أربعةِ أشهرٍ، فكان ملتزما شرطَ أبيهِ. فرحل إلى بصرى الشام وحماة والمعرَّة وحلب وسرمين وبعلبك وطرابلس، ثم إلى فلسطين والأردن ومكة والمدينة ومصر، كل ذلك يلتقي علماءَها، فيأخذَ منهم ويدوّنُ عنهم، ويقرأُ عليهم ويتخرجُ بهم، حتى بلغَ عددُ أساتيذهِ وشيوخِهِ ألفاً وثلاثمائة، طافَ

عليهم في أربعين بلدةٍ، وقد ألفَ لاحقاً كتاباً في تراجمهم، سماه "معجم الشيوخ الكبير"، وهو مطبوع في مجلدتين.

تزوج الحافظُ الذهبي بفتاةٍ صالحةٍ من كفر بطنا، أنجبتْ له ثلاثةَ أولادٍ، بنتاً وصبيين، وكان لأولادهِ الثلاثة ولأحفاده وأسباطه منهم حظٌّ وافرٌ من العلم والأدب؛ حتى أخذَ عنهم الناسُ وتأدَّبوا بهم، وهذه بركةُ الآباء للأبناء.

تصدَّرَ الحافظُ حلقةَ الإقراءِ بالجامع الأموي وعمرُهُ قريبٌ من العشرين، ورقى منبرَ الجمعةِ خطيباً في مسجد قريتهِ وقد بلغَ الثلاثين، وتولى مشيخةَ عددٍ من دورِ الحديثِ بدمشقَ. وشيخُ دارِ الحديث في زمنهم كعميد كلية في زمننا.

أيها الإخوة:

برع الحافظ في علومٍ خمسةٍ فهو مُقرِئٌ، ومحدِّثٌ، ومؤرِّخٌ، وفقيهٌ، ولغويٌّ، وله في كلٍّ مؤلفاتٌ، وإن كانت أكثرُ شهرته في الحديث والتاريخ.

ومما أُثِرَ في تكوينِهِ العلمي القوي: ثلاثةٌ حولَهُ، وثلاثةٌ فيه:

أما الثلاثةُ حولَهُ: فأسرتُهُ، وأصدقاؤُهُ، ومعلموهُ. وفي هذا فائدةٌ لكلٍّ منا أن يعتنيَ بها، لينالَ رُتَباً عاليةً في العلمِ والأدبِ كالتي نالها الإمامُ الذهبيُّ أو قريباً.

وأما الثلاثةُ فيه: فهمتُهُ العاليةُ، وتوجُّهُهُ بالعبادة والدعاء إلى الله تعالى، وعملُهُ على اختصار كُتُبٍ كثيرةٍ يقرؤُها ويُعلِّقُ عليها، ويصحِّحُها ويستدركُ عليها ويختصرُها ويكتبُها بخطِّ يدِهِ. وقد عددتُ له أكثرَ من ستين كتاباً اختصرَها، بعضُ هذه الكتب أمهاتٌ، يزيدُ عددُ مجلداتها على الثلاثين.

يعدُّ الإمامُ الذهبيُّ من العلماء المكثرين في التصنيف، وقد اعتبره الحافظُ ابنُ حجر أكثرَ أهلِ عصرِهِ تصنيفاً، رَبَتْ مصنفاتُهُ على المائتين. ويهمني أن أخبرَكم —وهذا يفيدُ في الأزمةِ التي نحن فيها، نسأل الله تعجيلَ فرجِها— أن المتتبّعَ لمنهجِ الإمام الذهبي في كتبِهِ يجدُهُ ينقُدُ غالباً كلَّ ما يراهُ غيرَ صحيحٍ أو مخالفاً للحق والشرع والعقل، لكنه في نقدهِ مُنصِفٌ مؤدَّبٌ.

وهذان أمرانِ مهمانِ في صلاحِ الفرد والمجتمع (نقدُ الخطأ، والانصافُ في النقد)

وقد علمتْنا هذه الأزمةُ أن لا يَسكُتَ المرءُ عن الخطأ بدعوى مراعاةِ مشاعرِ الآخرين أو مصالحهم، أو بحجةِ اللباقةِ والكياسةِ والسياسةِ؛ لأن الخطأَ الصغيرَ يمكنُ تفاديه بنصيحة، لكنهُ عندما يكبرُ ويتمادى يكلِّفُ إصلاحُهُ الكثيرَ الكثيرَ.

ولئن قلنا: النصيحةُ والنقدُ، فهذا يعني بالضرورةِ الإنصافَ والأدبَ.

وأحبُّ أن أقرأَ عليكم شيئاً من نقدِهِ للخطأِ مع إنصافِهِ وأدبِهِ من كتابِهِ الجليل "سير أعلام النبلاء"، الذي تَرجَمَ فيه لرجالٍ من سبعةِ قرونٍ، فضمَّنَهُ 5925 نفساً، فكان -حقاً- نفيسةً من نفائس الدهر في السير والتراجم، وقد طُبع الكتابُ في ثلاثٍ وعشرين مجلدة:

- قال في ترجمة الإمامِ المقرئِ محمد بنِ أحمدَ البغدادي الخياط (ت 499):

قال ابن النجار: بلغَ عَدَدُ مَنْ أَقرَأَهُم مِنَ العُمْيَان سَبْعِيْنَ أَلْفاً، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ بِخَطِّ أَبِي نَصْرٍ اليُونَارِتِي الحَافِظ.

قُلْتُ –القائل: الإمامُ الذهبي-: هَذَا مُسْتحيلٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكتب نَفْساً، فَسَبَقَه القَلَمُ فَخَطَّ أَلْفاً، وَمَنْ لَقَّنَ القُرْآنَ لِسَبْعِيْنَ ضَرِيراً، فَقَدْ عَمِلَ خَيْراً كَثِيْراً.

- وأورد في ترجمة عبد الله ابن المبارك:

سألَه رجلٌ عَنِ الرَّجُلِ يَصُوْمُ يَوْماً وَيُفطِرُ يَوْماً.

فقَالَ: هَذَا رَجُل يُضِيعُ نِصْفَ عُمُرِهِ، وَهُوَ لاَ يَدْرِي. يَعْنِي: لِمَ لاَ يَصُوْمُهَا.

قُلْتُ: أَحسِبُ ابْنَ المبَارَكِ لَمْ يَذْكُرْ حِيْنَئِذٍ حَدِيْثَ: «أَفْضَلُ الصَّوْمِ صَوْمُ دَاوُدَ»، وَلاَ حَدِيْثَ النَّهْيِ عَنْ صَوْمِ الدَّهْرِ.

- وأورد في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل:

وَعَنْ رَجُلٍ، قَالَ: عِنْدنَا بِخُرَاسَانَ يَظُنُّوْنَ أَنَّ أَحْمَدَ لاَ يُشبهُ البَشَرَ، يَظُنُّوْنَ أَنَّهُ مِنَ المَلاَئِكَةِ.

وَقَالَ آخَرُ: نَظْرَةٌ عِنْدنَا مِنْ أَحْمَدَ تَعدِلُ عِبَادَةَ سَنَةٍ.

قُلْتُ: هَذَا غُلُوٌّ لاَ يَنْبَغِي، لَكِنَّ البَاعثَ لَهُ حُبُّ وَلِيِّ اللهِ فِي اللهِ.

- وأورد في ترجمة أبي بكر القفال الشاشي أنه انتصر في تفسيره للاعتزال ثم قال: وَالكمَالُ عزيزٌ، وَإِنَّمَا يُمدحُ العَالِمُ بِكَثْرَةِ مَا لَهُ مِنَ الفضَائِلِ، فَلاَ تُدفنُ المحَاسِنُ لورطَةٍ، وَلَعَلَّهُ رَجعَ عَنْهَا. وَقَدْ يُغفرُ لَهُ بِاسْتفرَاغِهِ الوسْعَ فِي طلبِ الحَقِّ وَلاَ قوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ.

أرأيتم أيها الإخوة؟ إنه نقدٌ منصفٌ مؤدبٌ، فلا هو ساكتٌ عن حقٍّ، ولا هو ناقدٌ جائرٌ، ولا هو تاركٌ عفةَ اللسان.

أصيب الحافظُ قبيل وفاتِهِ بيسيرٍ ببصرِهِ فما زال نورُ عينيهِ يضعفُ حتى ذهبَ.

ومات سنة 748 بدمشق، ودُفن بمقبرة الباب الصغير، وحضر الصلاةَ عليه جملةٌ من العلماء في مسجد دمشقَ، أنشد أحدُ تلامذته فيه قوله:

أشمسَ الدين، غِبتَ وكلُّ شمسٍ تغيبُ وزال عنا ظلُّ فضلِك

وكم ورَّختَ أنت وفاةَ شخصٍ وما ورَّختَ قطُّ وفاةَ مثلِك

وكتب آخر يقول:

مازلتُ بالسمع أهواكم وماذُكِرت أخبارُكم قطُّ إلا مِلتُ من طرب

وليس من عَجَبٍ أن مُلتُ نحوَكُمُ فالناسُ بالطبع قد مالوا إلى الذهب

رحم اللهُ مؤرخَ الإسلام الحافظَ الذهبيَّ، وجعلنا وذرارينا على نهجِهِ، واجمعَنا معه في مستقرِّ رحمتِهِ.

والحمد لله رب العالمين